

التحرير والتنوير

والمراد : كل من كان ذا مال وبنين من كبراء المشركين كقوله تعالى (وذري والمكذبين أولي النعمة) . وقيل : أريد به الوليد بن المغيرة إذ هو الذي أخلق أن يقول في القرآن (أساطير الأولين) وقد علمت ذلك عند تفسير قوله تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين) . وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة من المال كثير الأبناء وهو المعني بقوله تعالى (ذري ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا) إلى قوله (إن هذا قول البشر) . والوجه أن لا يختص هذا الوصف به . وأن يكون تعريضا به .

والأساطير : جمع أسطورة وهي القصة والأسطورة كلمة معربة عن الرومية كما تقدم عند قوله تعالى (يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) في الأنعام وقوله (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) في سورة النحل .

التي التكذيب صفة إلى ليرجع التكذيب بوصف أصحابها إطاعة عن المحذر الأوصاف وختمت A E انتقل الأسلوب منها من قوله (فلا تطع المكذبين) .

وقرأ الجمهور (إن كان ذا مال) بهمزة واحدة على أنه خبر . وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بهمزتين مخففتين فهو استفهام إنكاري . وقرأه ابن عامر بهمزة ومدة بجعل الهمزة الثانية ألفا للتخفيف .

(سنسمه على الخرطوم [16]) استئناف بياني جوابا لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع : ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح والاجترار على ربهم .

وضمير المفرد الغائب في قوله (سنسمه) عائد إلى كل حلاف باعتبار لفظه وإن كان معناه الجماعات فإفراد ضميره كإفراد ما أضيف إليه (كل) من الصفات التي جاءت بحالة الأفراد . والمعنى : سنسم كل هؤلاء على الخراطيم وقد علمت أننا أن ذلك تعريض بمعين بصفة قوله (أساطير الأولين) وبأنه ذو مال وبنين .

والخرطوم : أريد به الأنف . والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل . وقد خلط أصحاب اللغة في ذكر معانيه خلطا لم تتبين منه حقيقته من مجازه .

وذكر الزمخشري في الأساس معانيه المجازية ولم يذكر معناه الحقيقي وانبههم كلامه في الكشف إلا أن قوله فيه : وفي لفظ الخرطوم استخفاف وإهانة يقتضي أن إطلاقه على أنف الإنسان مجاز مرسل . وجزم ابن عطية : أن حقيقة الخرطوم مخطم السبع أي أنف مثل الأسد

فإطلاق الخرطوم على أنف الإنسان هنا استعارة كإطلاق المشفر وهو شفة البعير على شفة الإنسان في قول الفرزدق .

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ... ولكن زنجي غليظ المشافر وكإطلاق الجحفة على شفة الإنسان " وهي للخليل والبغال والحمير " في قول النابغة يهجو لبيد ابن ربيعة : .

ألا من مبلغ عني لبيدا ... أبا الورداء جحفة الأتان والوسم للإبل ونحوها جعل سمة لها أنها من مملوكات القبيلة أو المالك المعين .

فالمعنى : سنعامله معاملة يعرف بها أنه عبدنا وأنه لا يغني عنه ماله وولده منا شيئاً .

فالوسم : تمثيل تتبعه كناية عن التمكن منه وإظهار عجزه .

وأصل (نسمة) نوسمه مثل : يعد ويصل .

وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة فإن الوسمة يقتضي التمكن وكونه في الوجه إذلالاً وإهانة وكونه على الأنف أشد إذلالاً . والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه والضرب والوسم ونحوهما على الأنف كناية عن قوة التمكن وتمايم الغلبة وعجز صاحب الأنف عن المقاومة لأن الأنف أبرز ما في الوجه وهو مجرى النفس ولذلك غلب ذكر الأنف في التعبير عن إظهار العزة في قولهم : شمع بأنفه وهو أشم الأنف وهم شم العرانيين . وعبر عن ظهور الذلة والاستكانة بكسر الأنف وجدعه ووقوعه في التراب في قولهم : رغم أنفه وعلى رغم أنفه قال جرير : .

لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وعلى البعيت جدعت أنف الأخطل ومعظم المفسرين على أن المعنى بهذا الوعيد هو الوليد بن المغيرة وقال أبو مسلم الأصفهاني في تفسيره قوله (سنسمه على الخرطوم) هو ما ابتلاه الله به في نفسه وماله وأهله من سوء وذل وصغار . يريد : ما نالهم يوم بدر وما بعده إلى فتح مكة . وعن ابن عباس معنى (سنسمه على الخرطوم) سنخطمه بالسيف قال : وقد خطم الذي نزلت فيه بالسيف يوم بدر فلم يزل مخطوماً إلى أن مات ولم يعين ابن عباس من هو